الجواب

ما ترى لا ما تسمع

أحمد محمد حلمي عبده

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الجوابُ ما ترى لا ما تسمع

أمرٌ هو من عِظام الأمور، وخَطْبٌ هو من مُدلهمَّات الدهور، وبليةٌ كذلك ولا كلِّ البلايا؛ بُعد المسلمين عن دين ربهم؛ فالمسلمون بغيره هملاً، لا شأن لهم يُذكر، ولا عليهم تُكلى تنوح، ذاك هو المرض الذي تعددتْ أعراضُه، وتنوعتْ واستشرتْ مظاهرُه، ونادى على مرضاه كثيرٌ من المكلومين، الذين علموا أن لكلِّ داءٍ دواء؛ فإذا أصاب دواءُ الداء كان الشفاء بإذن الله تعالى، وعلاج هذا الداء بجميع أعراضه ومظاهره؛ (حتى ترجعوا إلى دينكم)[1]؛ إذ هو منبع العِزِّ، ومصدر القوةِ، وطوق النَّجاة في الدنيا قبل الآخرة.

ومن الأعراض اللازمة لذلك المرض؛ تسلط الأعداء والسفهاء، فكما لم يظهر النفاق إلا بالمدينة؛ حين اشتدت شوكة المسلمين بها، كذلك لم يتسلط هؤلاء إلا حينما عصينا اللهَ تعالى ورسولَه صلى الله عليه وسلم، وهجرنا دستورنَا القرآنَ الكريمَ، وتفرقنا فأصبحنا شِيَعا متناحرين، وانشغل كلٌّ منَّا بليْلاه؛ فذهبت لذلك قوتُنا، ونُزعت كذلك الرهبةُ من قلوب عدوِّنا؛ فبعد أنْ كان يخافُنا شهراً ـ قبل أن نتحرك إليه ـ رهباً ووجلاً، أصبحنا ـ وإنا لله وإنا إليه راجعون ـ نخشاه قبل أن يفكِّر في غزونا شهورا؛ بل سنيناً!!.

وعليه .. فما وعَدَ هذا الذي لا يملك ذاك الذي لا يستحق؛ إلا حينما علم حالَنا، وما آل إليه أمرُنا، فاختار وقتاً، إن قلَّبتَ فيه الطرْفَ؛ وجدتَ المسلمين فيه ـ شعوباً وحكوماتٍ ـ قد أنهكتهم الظروفُ؛ فما بين مشتغلٍ برئاسةٍ قد أقبلت انتخاباتها، وما بين محارب للفساد الذي قد كُمُن في أبناء عمومته، وما بين هزيلٍ مريضٍ ضعيفٍ قد تقلَّد مقاليدَ حكمِه حوْزاتٌ ومرجعياتٌ هم إلى مَن تسلط على المسلمين أقربُ إليهم من المسلمين ـ وإن تظاهر بالدفاع عن المسلمين ـ، وما بين من تقسمت بلدتُهم؛ فأصبحت دويلاتٍ، وقبائلَ وعشائر؛ يُغِير كبيرُهم على صغيرهم، وما بين من نأى بنفسه عن مجريات الأمور فانعزل؛ بعد أن كان منعزلا! ولِم لا؟ وقد كان بموقعه الجغرافي بعيدا فلم نسمع عنه تنديدا بل ولا وشجبا.

(1) جزءٌ من حديث أخرجه ابو داود، كتاب الإجارة، باب: (في النهي عن العينة)، برقم: (3459).

إنَّ استدعاءَ التاريخِ الإسلاميِّ الزاهرِ يبعثُ في النفوس شجونا، وآلاما، وحسراتٍ، وزفراتٍ؛ وها هي حوادث أبعثُها بين يديك؛ فلعلَّ بعْثَها يبعثُ نفوسا قد رقدتْ بل دُفِنت في مهاوي الشهوات والملذات.

فها هو ثمامة بن أُثال رضي الله عنه؛ الصحابي الجليل، سَيِّدُ قومه، الذي ترجم إيمانه بعقيدته فوْرَ اعتناقِه إياها، والذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم؛ إذْ سأله: (ما عندك يا ثمامة؟)، قال: (عِندي خير؛ إن تُنعِم تُنعم على شاكر، وإن تقتُل تَقتُل ذا دمٍ؛ وإن كنت تريد المال فسل تُعط منه ما أردت)، ولما أخبر قريشاً بإسلامه؛ قالوا له: أصبوت!؟ قال (بل أسلمتُ) ـ ثم قال .. وانظر إلى ما قال ـ (ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبةُ حِنْطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1].

فلم يزل رضي الله عنه بعد إسلامه؛ ذا دمٍ يجرى في عروقه؛ فلم يقبل بسببه وهو مكبَّلٌ في سارية المسجد ـ قبل أن يُسلم ـ أن ينطق بما أملاه عليه ضميره ونخوته وشجاعته؛ فقال ما قال؛ إنه الدمُ العربي الذي ازداد حَميَّةً إلى حميته وذك عندما أعلن إسلامه؛ فلم يكن جباراً في جاهليته خوارا في إسلامه، وكان رضي الله عنه ذا خيرٍ، ومالٍ كثير، وهذا المال وهذا الخير؛ قد استخدمه في نُصرة إخوانه ممن شاركوه الدينَ والعقيدة، وليس هو فقط؛ بل ومعه قومُه ممن يأتمرون بأمره، ولا يخالفون له رأيا، وكذلك لم ينظر إلى حال الآخرين؛ الذين دخلوا في الدين معه؛ فآمنوا واعتقدوا بما آمن واعتقد؛ فسأل عما قدموا لأجل عقيدتهم حتى يتأسى بهم أو يفعل فِعلهم! كلُّ هذا لم يحدث، ولكنه فعل أمراً هو من بديهيات الأمور؛ إذْ كيف يُؤذَى رسولٌ قد آمن به؛ ثمَّ يأتي هو وينفع من آذاه!!

إن أيَّ عمَلٍ من الأعمال ولو كان قليلاً؛ نوى به صاحبُه إغاظةَ أعداء الله ورسوله فله عليه أجر كبير؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾؛ أيها السادة؛ إنها المسؤولية الفردية ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾، فلا تَسلْ عن الآخرين ولا عن أفعالهم؛ بل عن أفعالك سيَسْألُون؛ ومِن ثمَّ سيقتدون، حتى وإن سبقوك في أفعالهم؛ فالعبرة بِمَن سبق.

(1) أخرج هذه القصة البخاري في صحيحه؛ كتاب المغازي، باب: وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، برقم: (4114).

إن الحنطة التي كانت تأتي قريشاً من بني حنيفة ليستْ هي كلُّ مظاهر الحياة لقريش؛ حتى إذا ما منعها بنو حنيفة؛ ماتت قريش!!؛ لا .. فعندهم من سُبُل الحياة ومصادُرها الكثيرُ والكثيرُ، وكذلك لم يكن بنو حنيفة بالقوة الضارية التي تستطيع أن تُهاجم قريشا؛ فتنتقم لمثل هذا القرار، وكذلك لم تكن قريش بالتي تأخذ هذه الحنطة على سبيل الصدقة، ولا بنو حنيفة ـ صاحبةُ هذا القرار ـ بالتي تدفع حنطتها بغير عوض، .. أعود فأقول: إنها مسؤولية؛ تجاه عقيدة .. فحسب.

وذاك هو هارون الرشيد؛ ذلكم الأميرُ الذي قد ذاع ذِكرُه وانتشر ـ بحقٍّ هو له أهلٌ، وبباطل لم يسلم منه أهل النخوة والمروءة ـ، ذلكم الأميرُ الذي كان يحج عاما ويغزو آخر مجاهدا في سبيل الله، ناشرا دين الله تعالى، مؤدِّبَا من تطاول على حرمات المسلمين؛ جاءتْه رسالةٌ من عِلْجٍ توَّجَه علوجٌ مثلُه عليهم؛ بعد أن كانتْ تعلوهم امرأةٌ ؛ وبئس همُ القوم مع السابقةِ واللاحق ـ أراد هذا العِلج أن يسترد تلك الأموال التي كانت تدفعها سابقتُه جزيةً لأمير المؤمنين هارون؛ فأرسل ذلك في رسالة إلى أمير المؤمنين؛ وشفع طلبَه هذا بأمرين؛ **أولهما**: بأن السابقة خرقاء حمقاء ضعيفة لا عِلم لها بأمور السياسة، و**ثانيهما**: أن في هذا فداء لأمير المؤمنين من بطش النصارى!! فهذا ما تمخض به؛ فليته كان أخرق أو أحمق كحال من وصفها، أو كان عقيما فما تمخض بما فيه حتفه.

فكان الجواب من أميرنا أميرِ المؤمنين؛ «قد وصلني خطابك؛ يا ابن الكافرة الجواب ما ترى لا ما تسمع، والسلام على من اتبع الهدى»[1]، فكان حالاً لا مقالاً.

إن أمَّة لم تُحسن أمام قضاياها المصيرية سوى الكلام؛ فهي في أعْين أعدائها غثاءٌ كغثاء السيل، ليس لها إلا الضجيج والعويل والصراخ، فها هي حشود قد اجتمعت في ندوةٍ أو محاضرةٍ، أو خُطبة هنا أو هناك، أو إن شئتَ في مظاهرة تتحرك من مكان إلى مكان ولا تتعدّاه، أو في مجال آخر؛ فتُطبع الكُتيبات بل والكُتب، ومن ثمَّ النشرات والمقالات والصحف والمحاورات والمناقشات والمشاورات؛ وتخرج التوصيات والبيانات وما تعدَّى ذلك كلُّه إلا المِداد الذي تُسوَّد به الأوراق وتُطبع، أوْ في أحسن الأحوال صيحاتٌ تُنادي بجهاد

(1) البداية والنهاية؛ لابن كثير، ج13، ص: (649، 650) ط: دار هجر، بتحقيق: د/ عبد الله التركي

الأموال فحسب (وليس السلاحَ)!! ومن ثمَّ تُجمع الأموالُ من هنا أو هناك ثم تُقدَّمُ كمُساعداتٍ لقِطَّةٍ هزيلة في قفصٍ مُحكمِ المنافذِ ومعها فيه وحشٌ كاسِرٌ لا يمَلُّ من تقطيع أوصالها. فهل نفتح المنافذ لها هرباً ونجعل الوحش كامناً في قفصها أم نقضي على الوحش، أم نستمر في المساعدات؟ فقد أدَّيْنا ما علينا تجاه قطَّتِنا؟!!.

إن هارون الراشد الرشيد لم يُكَلّف نفسه في ردِّه عليه شيئاً؛ ولا حتى ورقةً بل كتب على ظهر رسالته ما كتب؛ وأظنُّ أن المداد الذي استخدمه ما كان إلا من باب إعلامه بقدومنا عليه؛ فلسنا من أهل الغدر إذ كان هُو أهلَه؛ فالجواب ما يرى لا ما يسمع.

أحبتي .. الجواب ما يرى أعداؤنا من تمسُّكِنا بكتاب ربنا وسنّة نبينا، وما يرونه كذلك من محافظتنا على الصلوات، والزكوات، والصيام، وما يرونه كذلك من أخلاقنا وتعاملاتنا التي أمرنا بها ربنا تبارك وتعالى ونبينا صلى الله عليه وسلم. فما نُنصر إلا بذلك

أحبتي .. الجواب ما يرى أعداؤنا من بُعْدنا عن المعاصي التي انتشرت واستشرت فملأتِ الآفاقَ؛ حتى أصبح المسلمون في ديارهم بلا إسلام، فالجواب هو أن ينتهيَ المسلمون عن الشرك ومظاهره، وعن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وعن الربا والزنا والخمر والميسر والتبرج والرشوة وشهادة الزور وقذف المحصنات، وأكل أموال الناس بالباطل .. وقائمةٍ من المحرمات كبيرة كثيرة؛ هي في المسلمين متمكِّنة، فالجواب ما يرى هؤلاء من عدم سَيْرنا وراءهم لاهثين مُقْتدين مُقْتفين؛ هجرنا طُرُقَهم، وكذلك ثقافتهم، بل نقول لهم ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

وذاك في تغيير المنكر واستنفاذ طاقات الشعوب فيما لا طائل من ورائه: إن النبي صلى الله عليه وسلم قد علّمنا أن المنكر يتغير بأمورٍ؛ أولها: باليد، وثانيها: باللسان، وثالثها: بالقلب، ولكلِّ أمرٍ من هذه الأمور فِقْهٌ ينبغي أن لا نتعدَّاه إفراطا أو تفريطا؛ مع السعيْ الدؤوب لتحقيق المنزلة الأعلى عند اضطرارنا إلى المنزلة الأدنى، فهل عجزت الأمَّةُ الإسلاميةُ بقادتها وشعوبها وجيوشها ومقدراتها عن إزاحة هذا المنكر من ديارها؟، أم هل عجزت أن تُنزِّل نفسها بمنزلة ثمامة ـ رضي الله عنه ـ؛ فلم تنفع عدوَّها بالغاز أو بالمال أو بالعلم أو بالمشاركة في أيّ رأي من الآراء السياسية، أو قطَّعت معه كلَّ العلاقات فأرسلت

لهم رسائل مع سفرائهم الذين هم في بلدانهم أنْ أخبروهم؛ أنّ (الجواب ما ترونه لا ما تسمعونه)؛ وأنّى لي بقائلها!!.

أم أنَّه اللسان الذي لا يُغيّر منكرا ولا يزيل باطلاً مع قوم لا يتكلمون ولا يصيحون مثل صياحنا؛ بل بباطلهم يعملون، ويجهرون ولا يستخفون، وكذلك لا يستحون، ولعلَّه هو المقصود: أن يصيح قومي في مواطن شتى؛ في مطبوع أو مسموع؛ حتى إذا ما انتهت تلك السَّنة التي جعلها ذاك الدَّعِيُّ غايةً لنقل **ذاك المِرحاض إلى هذا الموطن المقدّس**[1]؛ يكون اللسان قد أُنْهِك فلم يستطع الحديث عندها بل وستكمم الأفواه وتخرص إن بقي لها أو فيها كلام، وعندها سيكون لسادتي عذر: قد تكلمنا وصِحْنا ونَادينا وشجبنا بل وندبنا كذلك فما الحيلة!!

وذاك مثل للعقلاء العالِمون:

ولْنَضرب لحال أمَّتنا مع الآخرين بمثالٍ؛ بعائلتين لهما أُسَرٌ كثيرةٌ وأفراد كذلك كثيرون، أمّا **الأولى**؛ فلها جذور من النَّسب عريقة والثانية بخلاف ذلك، ثمَّ إنه قد غاب عن الأولى جدُّها ومظهرُ عزِّها، وحين غاب؛ صنعت الثانيةُ لنفسها جدّاً فحكَّموه وعظموه فيما بينهم، وعندما صُنِع هذا الثاني؛ **حكم بجزءٍ من أجزاء العائلة الأولى لأسرة من أُسَرِ عائلته.**

فكان حال العائلة التي غاب عنها جدُّها عجباً؛ أفرادٌ يَنْعُون وينادون على ماضٍ تليدٍ قد مضى، وآباءٌ (رؤساءٌ) لأفراد؛ يأخذون بهم نَحْوَ هذا الجدِّ الذي صُنِع (الأمم المتحدة)؛ بل ويسترضونه كذلك؛ ثمَّ أخذوا يقتحمون في أحضانه واحدٌ تلوَ الآخر؛ وكأنَّهم بلا أب ولا جدٍّ؛ فهل كانوا لقطاء لينتسبوا إليه؛ فليس هو جدَّهم، ولا هم من أبنائه!!.

ثمَّ دبَّ الخلاف كذلك بينهم؛ فأصبحوا يتقاتلون ويتناحرون، ثمَّ ها هم يهرعون إلى ذك المزعوم؛ كي يقضي بينهم الخلافات؛ بل ويستعينون به على بعض!!.

وفي عشيَّةِ ليلةٍ أو ضحاها؛ قال أحد أفراد العائلة الأخرى ذات الجدِّ المزعوم ما هو من مسلَّماتِ ولوازم حُكْمٍ قد حكم به جدُّه الأولُ المزعومُ بعد تنصيبه.

(1) ـ قد كنتُ كتبتُ هذه الكلمات منذ أن عزمت الدولة اليهودية على نقل سفارتها إلى القدس الشريف. ثم أعدتُ النظر فيها عندما حدث ما هو معروف بـ: "طوفان الأقصى"، سدَّد الله سهامَهم وأزاح على أيديهم هذا الدنس .. آمين.

فهل يا تُرى؛ سيكون حال العائلة الأولى الباكيةِ على الماضي؛ لا يزال هو البكاء والصياح والعويل ولا غير؟ أم ستُنادِي بما نادَى به بعض أفرادها منذ غاب جدُّهم؟ أم سيتغير الحال لأن الآباء والأفراد أصبحوا يؤمنون بقضية؛ هي من مظاهر جدِّهم الذي غاب عمَّا قريب؛ فلم يكونوا كالسابق؛ أفراد في جانب وآباءٌ مناهضون في جانب آخر!!.

أم سيكون الحال لكلِّ أسْرة من أسَرِها؛ هو السؤال عن حال الآخرين في عائلته كي يفعل مثل ما فعلتْ، أو ينتظرون جميعاً ما يحلُّ بتلك العائلة ذات الجدِّ المزعوم[1]!!.

أم ستَلْتَمس كلُّ أُسْرةٍ لنفسها عذرا؛ يُهوِّن عليها ذاك الموقف المَهين الذي ألجأت نفسها إليه، فمن قائل: تلك الأرضُ أرضُها وهي التي فرطت وضيعتْ، وقائل: شأني في أسرتي أكبر من هذا؛ فعندما أكون قويّا سأدافع عن كل أفراد عائلتي وليس أسرتي فحسْب .. وهيهات!!.

أم أنه سيكون معقولاً أن يذهب آباءُ تلك الأُسَر إلى جدٍّ ليس جدَّهم كي يستعطفوه ويسترحِموه؛ في أن يُحافظ على جزء من أرضهم التي قد حكم بها جدُّه الأول بأنها ليست لهم بل لعائلته؛ فهل يُعقل أن يخالف المزعوم اللاحق ما حكم به المزعوم السابق، أم أنه على نفس الخطى يسير!!.

والسلام.

كتبه:

(أحمد بن محمد بن حلمي آل الحتَّة)

(الجمعة: 3/ ربيع آخر/ 1445هـ - 3/ 11/ 2023م)

---

(1) إن المملكة البريطانية المتحدة ساهمت في صناعة قاذف من القاذفات (أريان) لإطلاق أقمار الفضاء الصناعية؛ وكانت نسبة المملكة في هذا المشروع: (3.17%)، والدنمارك: (0.7%)، وأيرلندا: (0.25%) !! بينما كانت نسبة فرنسا: (58.48%)!!، والسبب الرئيس لذلك؛ هو الخروج من سيطرة الروس والأمريكان في هذا المجال. وهذه الدول ضِمن؛ وكالة الفضاء الأوربية (ESA). يُنظر مجلة (العلم والحياة)، الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ العدد الخامس، يناير 2018م، ص:(34 - 40)، د/ محمد بهي عرجون، موضوع: قصة الفضاء كاملة "5". فأين أمتي؟ وهل تعي هذا المثل؟!! الذي هو من الاتحادات الأوربية ذات الألسُن المختلفة، والعقائد المتباينة!!